العرب
الجمعة 2021/08/27
السنة 44 العدد 12161

الديستوبيا أو اليوتوبيا المضادّة مرآة الإنسان المعاصر

ما بين الواقع واللاواقع خيط أوهن من خيط العنكبوت

هل المستقبل مظلم فعلا؟ (لوحة للفنان عمر فهد)

يعود الحديث دائما عن اليوتوبيا والديستوبيا كلّما ازدادت الأوضاع سوءًا، حيث يعمد كتّاب الخيال العلمي إمّا إلى تخيل العوامل المؤدية إلى عالم بديل يطيب فيه العيش، أو تصوّر ما ينتظر البشرية من كوارث بسبب سوء تصرف الإنسان، سواء بتدمير البيئة وتجفيف مواردها، أو بابتكار أسلحة دمار شامل، وحتى بخلق ذكاء اصطناعي قد يعود عليه بالوبال، فكل مرحلة تطرح الرهانات المجتمعية التي تشغلها.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

تلتقي اليوتوبيا والديستوبيا في تصور عالم متخيل، حيث تحاول اليوتوبيا أن ترسم مشروع عالم مثالي، غير موجود على أرض الواقع، ولكن نتوق إليه ونسعى لبلوغه، بينما تعمل الديستوبيا على رسم الحدود التي لا يمكن لليوتوبيا أن تتجاوزها، فتضع الآمال العراض التي تثيرها اليوتوبيا موضع شك، وتحذّر من المساوئ التي يمكن أن يحتوي عليها عالم مفرط في المثالية كالشيوعية والنازية مثلا.

ولئن كان المصطلحان أدبيين عند ظهورهما فإنهما تحوّلا إلى نظرة ناقدة للمجتمعات والأنظمة السياسية، لكونهما يقترحان رؤية بديلة عن المستقبل، بخيره أو شرّه.

اختلاف وتواشج

تعني يوتوبيا Utopia في استعمالها الشائع "المكان الذي لا وجود له"، وهي مستوحاة من Eutopia اليونانية التي تعني "المكان الحسن"، وكان الإنجليزي توماس مور (1478 – 1535) أول من استعملها في كتاب "يوتوبيا" صدر له عام 1514، أي في مرحلة شهدت فيها أوروبا أكبر صدمة ثقافية في تاريخها إثر الاكتشافات الكبرى، وحاول في تلك الرواية ربط اكتشاف شعوب غير معروفة في أميركا بتاريخ الإنسانية قاطبة.

في تلك الفترة كان مور مستشارا للملك هنري الثامن الذي تميز عهده بالفساد والرشوة والابتزاز في مجتمع إقطاعي يسير إلى الانحطاط، يحلم بعالم آخر وجمهورية مثالية يزول فيها المال والملكية الفردية ويصبح الناس محكومين بالعقل والفضيلة، فتخيّل جزيرة تدعى يوتوبيا، تسكنها جالية مدنية تدار شؤونها بأفضل أشكال الحكم، وصاغ بمنهجية دقيقة المبادئ والقوانين التي تقوم عليها المدينة الجديدة. ولم يكن ذلك من نوع الهروب إلى مكان مثالي، بل كان قبل كل شيء تأمّلا فلسفيا في الأسس الإيتيقية والسياسية لمجتمع يسوده العدل والسعادة.

أما الديستوبيا، وإن نُسبت إلى جون ستوارت ميل عضو البرلمان البريطاني وقتها، فإنها ظهرت قبله، أي عام 1747، وبرسم مغاير Dustupia، قبل أن تأخذ شكلها الحالي في العام الموالي. وكانت تحمل معنى "البلد الشّقيّ"، ولكنها لم تحمل معناها الحالي إلا في أواسط خمسينات القرن الماضي عقب صدور رواية جورج أورويل "1984" في ظرف رانت عليه الحرب الباردة والخوف من اندلاع نزاع نووي لا يبقي ولا يذر.

وبالرغم من الاختلاف الظاهر بين اليوتوبيا والديستوبيا، حيث عادة ما تعرّف الديستوبيا بكونها يوتوبيا مضادة، فإنهما في الحقيقة تقيمان علاقة متواشجة، فاليوتوبيات لا تؤول كلها إلى ديستوبيات، والديستوبيات ليست دائما يوتوبيات فاشلة، بل إن اليوتوبيات تحوي أحيانا عناصر ديستوبية سواء بالنسبة إلى مجمل المواطنين أو جانب منهم، حين يتأسس النظام على استغلال الأقلية لفائدة الأغلبية، كما يتجلى في رواية أورويل المذكورة، حيث ثمة ميز بين أعضاء حزب الداخل والبروليتاريا.

في المقابل يمكن أن تحتوي الديستوبيات على عناصر يوتوبية حيث يمكن أن تكون بعض الفضاءات بمثابة ملاذ من مجتمع ديستوبي في مجمله، كما هو الشأن في محمية المتوحشين ضمن رواية ألدوس هاكسلي "العالم الطريف" أو رواية إدوار بيلامي "النظر إلى الخلف".

تصف روايات اليوتوبيا أحيانا يوتوبيات في حالة تدهور وانحطاط، وخير مثال على ذلك رواية جورج أورويل، وكانت نقدا لاذعا للستالينية، وليس للاشتراكية بوجه عام كما شاع، لأنه ظل وفيّا للاشتراكية حتى وفاته عام 1950؛ غير أن عددا من روايات الديستوبيا، وخاصة تلك التي تنضوي تحت جنس الرواية القيامية تصف مجتمعات تُحتضر، أو نفرًا من الناجين يحاولون العيش قدر ما يستطيعون، وغالبا ما تغيب عنها الأسباب التي أدت إلى الكارثة، وكأنها من تحصيل الحاصل، أو تكتفي بالإشارة إليها عرضًا، كما هو الشأن في رواية "الطريق" للأميركي كورماك ماكارتي أو "المحطة الحادية عشرة" للكندية إيميلي سانت جون ماندیل وهي رواية استباقية تسرد أحداثا تقع خلال جائحة كالتي أصابت العالمَ اليوم.

ولئن كانت الديستوبيا تحذر من كوارث قد تحدث في المستقبل فإن هذا العالم المتسارع يأتينا بأخطار حقيقية تكاد تكون طوع اليد، وهو ما عبّرت عنه مؤخرا في الولايات المتحدة مجموعة من العلماء والباحثين في مجال التكنولوجيات المتطورة، رفيعة المستوى، في رسالة مفتوحة بعنوان "أولويات البحث لأجل ذكاء اصطناعي قوي ومفيد" نشرت في معهد مستقبل الحياة، وحذّرت فيها المجموعة من الذكاء الاصطناعي داعيةً إلى برنامج بحث مفصّل لتجنب انفجار ما أسمته بالقنبلة آ، كناية عن الذكاء، وألحت على ضرورة "أن نتأكّد من أن منظومات الذكاء الاصطناعي تنفّذ ما نريد منها تنفيذه".

فقد يجيء يوم ترفض فيه تلك المنظومات، التي ما انفكت تتمتع بنوع من الاستقلالية، الاستجابةَ لمبرمجيها. وهذا ما كانت روايات الخيال العلمي قد نبّهت إليه من خلال سيناريوهات ديستوبية شهيرة يرتدّ فيها المصنوع على صانعه، مثل المسخ الذي ارتدّ على الدكتور فرنكنشتاين في رواية ماري شيلّي، والحاسوب هال 9000 في "2001، أوديسا الفضاء" لآرثر تشارلز كلارك، وكان قد رفض تأدية ما يطلبه منه البشر، أو أفلام "ترميناتور" لجيمس كامرون، حيث استولت شبكة سكاينت على مقاليد الكون، أو "تسام" لوالّي بفايستر حين صارت المعلوماتيةُ نوعا من القوة الخارقة المعادية للبشر.

والسؤال الذي يطرح اليوم: كيف يمكن أن يساعدنا أدب اليوتوبيا والديستوبيا على إنعام النظر في الأزمات العالمية الكبرى، كالتغيّر المناخي والجائحة الحالية؟

بين الواقع واللاواقع

يقول غريغوري كلايس الأستاذ المحاضر بجامعة لندن، إن هذين المصطلحين يفيداننا كثيرا في تبين حالنا اليوم، والأسباب التي أدت بنا إلى هذا الوضع، والسبيل الذي يسمح لنا بالخروج منه، لأن من أهداف اليوتوبيا تصور المستقبل على المدى البعيد، وتقديم تكهّنات، أدبية كانت أم نظرية، بما ينتظرنا. أي أن اليوتوبيا تقدّم لنا رؤية بديلة يتراءى لنا من خلالها عالم أفضل يمكن بلوغه والإقامة فيه، حتى وإن سخرت أحيانا من قلة كفاءتنا وعجزنا عن الوصول إليه.

فهيمنة الرأسمالية والنزعة الاستهلاكية على نطاق واسع من مدة طويلة تستند إلى مثل أعلى يوتوبي، هو الازدهار الشامل كونيًا، والحال أن الجميع يعرف أن ذلك مستحيل، لاسيما أن موارد كوكبنا ليست مؤهلة لاحتمال عدد لا محدود من البشر.

> نظرة جادة إلى الوضع الحالي تؤكد أننا دخلنا منذ منتصف القرن العشرين عهدا غير مسبوق من الأخطار الكبرى

وحسبُنا أن ننظر نظرة جادة إلى الوضع البيئي لنتأكد أننا دخلنا منذ منتصف القرن العشرين عهد احتباس حراري غير مسبوق، حيث يُتوقّع أن تزداد الحرارة في العالم حتى منتصف هذا القرن ثلاث درجات سليوس، وأن يؤدّي ذلك إلى انقراض أشكال حياة كثيرة على الأرض، بما فيها الحياة البشرية؛ ما يعني أننا نواجه أخطر سيناريو ديستوبي تخيله الكتاب، ولو أننا شهدنا مثيلا له في منتصف القرن الماضي حين تخيلنا مصير الإنسان عند نشوب حرب نووية شاملة.

ولكن حتى إزاء مستقبل خطير كهذا لا نعدم روايات يوتوبية ترسم ملامح عالم ممكن، إذا ما استطاع الإنسان أن يحافظ على بيئته، كما في رواية "وزارة المستقبل" للأميركي كيم ستانلي روبنسون.

إن الخوف الذي ولّده الإرهاب والانحلال المجتمعي والتطور التكنولوجي من العوامل التي ترسّخ حضور الديستوبيا، حيث يبدو التوازي بين الواقع واللاواقع خيطا أوهى من خيط العنكبوت، فكلما تقدم المجتمع في سيرورة الزمن ازدادت خيبات مواطنيه، إذ هم يواجهون كل ما يؤكّد أنهم يعيشون واقعا ديستوبيا، حيث كل شيء يثبط العزيمة، كالضرائب والبطالة والشعور بغياب الأمن وخنق الحريات وتراجع القوانين وتسلط الرقابة. وهو ما يجعل الديستوبيا تهيّئ الناس إما للاستعداد لمستقبل مظلم أو للإيمان بأن وراء الغيوم نجما يلمع ونورا يهلّ.

أما اليوتوبيا فتحتوي على ثلاثة عناصر، أولها أدبي والثاني أيديولوجي والثالث هو ما تصنعه المجموعات البديلة التي أسستها عدة حركات سياسية واجتماعية. وهي التي يعوّل عليها اليوم للخروج من مأزق الأزمات الحالية.

السعودية تدعم المسرحيين الشباب بورشات تكوينية وفعاليات تصقل مواهبهم

الرياض – أطلقت هيئة المسرح والفنون الأدائية البرنامج التدريبي المتقدم في التمثيل والإخراج في نسخته الثانية، وذلك على خلفية ما حققه البرنامج من نجاح كبير في نسخته الأولى، والذي يهدفُ إلىً اكتشاف المواهب المحلية في التمثيل والإخراج وتأهيلها بأدوات ومهارات احترافية في الفنون المسرحية والأدائية.

وأوضحت الهيئة أن نشاط البرنامج سيستمر على مسرح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض لمدة 10 أيام، بمشاركة 50 متدرباً ومتدربة تم اختيارهم من بين أكثر من 150 متقدماً ممن لديهم تجارب سابقة في الأداء والتمثيل وإلمام باللغة الإنجليزية. وسيقدم البرنامج ورشتي عمل واحدة في الصباح وأخرى في المساء، تتخللهما تدريبات احترافية لتطوير أداء الموهوبين، وتمكين المبدعين منهم في مجالي المسرح والإخراج. واستعانت الهيئة بمدربين مؤهلين من الولايات المتحدة الأميركية وإسبانيا وهما: الأميركي فيكتور بيرك والإسباني أيدن كندون.

ويأتي البرنامج التدريبي بهدف إثراء المتدربين بالتجارب العالمية المسرحية، إلى جانب تعزيز فرص العمل للممارسين المسرحيين، والسعي للوصول إلى الموهوبين في مناطقهم، وصقل مواهب أكبر عدد من المبدعين وتجهيزهم لخوض تجارب مهنية حقيقية على أرض الوطن.

وتهدف هيئة المسرح والفنون الأدائية من هذه المبادرات المتخصصة إلى دعم التطوير المهني في قطاع المسرح، وتوفير الكوادر الوطنية المؤهلة في هذا المجال، وتنمية مهارات المهتمين والممارسين المسرحيين، وذلك من خلال تنفيذ برامج تدريبية قصيرة ومتقدمة افتراضية ومباشرة، وبما يُسهم في إمداد المهتمين والممارسين المسرحيين بالمهارات في مختلف التخصّصات المسرحية.

وتتدرب في إطار الورشة مجموعات من المواهب الشابة الواعدة على فنون التمثيل المسرحي والأداء، وتتعرف على المدارس المسرحية الحديثة المتعددة، إضافة إلى التدرب على الحركة والصوت وطرق الصعود على خشبة المسرح والنزول منها، مع التنويعات المتوازنة بين الأصوات والإشارات والتعبيرات المسرحية.

وتقدم الورشة برنامجا غنيًا بالتدريبات الاحترافية في الأداء ومعايشة الأجواء المسرحية؛ مثل حفظ النصوص المسرحية وتلقائية الأداء، ودرجات الصوت والحركة وتعبيرات أجزاء الجسم على المسرح، وإلقاء الضوء على بعض التوجهات والتيارات المسرحية السائدة في عالم المسرح اليوم.

ويأتي هذا التعاون بين وزارة الثقافة ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة من أجل تكامل العناصر الثقافية وإفساح المجال أمام المؤسسات الثقافية للإسهام في العمل الثقافي الشامل بمختلف أنواعه من آداب وفنون ومسرح وتراث وأزياء وفنون بصرية، ومن أجل أن تفضي هذه الورشة وغيرها من الورش التدريبية إلى صنع أجواء ملائمة لتقديم الأعمال المسرحية الوطنية الكلاسيكية والتجريبية ضمن الاستراتيجية الثقافية لتطوير الفنون والآداب والمعارف.

وتأتي هذه الورشات ضمن استراتيجية هيئة المسرح والفنون الأدائية السعودية التي تسعى لتطوير وتنمية قطاع المسرح والفنون الأدائية بكافة فروعه واتجاهاته، ودعم وتمكين منتسبي القطاع والمشتغلين فيه من فنانين وفنيين ومستثمرين، خاصة في المسارات التعليمية والتدريبية التي تهدف إلى تخريج نحو 4500 مسرحي ومسرحية وتأهيل نحو 4200 متدرب ومتدربة.

كما تسعى الهيئة لاكتشاف المواهب في مجالات المسرح والفنون الأدائية، وفق الإطار العام للاستراتيجية الوطنية للثقافة، وبالتواؤم مع مستهدفات رؤية المملكة 2030 في تطوير القطاع الثقافي وتعزيز جودة الحياة وتحقيق المساهمة الاقتصادية الفاعلة.

هيئة المسرح والفنون الأدائية
Theater and Performing Arts Commission

> الهيئة تسعى لاكتشاف المواهب المحلية في التمثيل والإخراج وتأهيلها بأدوات ومهارات احترافية

وفي تصريح سابق قال الرئيس التنفيذي للهيئة سلطان البازعي إن تصميم استراتيجية الهيئة يستهدف النهوض بقطاع المسرح والفنون الأدائية بوصفه أحد القطاعات الثقافية الرئيسية التي اهتمت بها الاستراتيجية الثقافية الوطنية، منوها بالدعم الكبير الذي يحظى به قطاع المسرح والفنون الأدائية من وزارة الثقافة.

وأشار البازعي إلى أن المهام الرئيسية للهيئة يمكن تلخيصها في تمكين الممارسين للمسرح والفنون الأدائية عبر تهيئة البيئة التنظيمية التي تساعدهم على العمل والإبداع وتطوير قدراتهم بالتعليم والتدريب، إضافة إلى التحفيز والدعم حتى يتمكنوا من تقديم عروض تليق بذائقة الجمهور السعودي وتجعل من الإقبال على هذه العروض جزءا من العادات الثقافية الراسخة، كما تقدم الثقافة السعودية للعالم أجمع.

وعلاوة على الورشات التدريبية أطلقت هيئة المسرح والفنون الأدائية السعودية أخيرا مسابقة وطنية بعنوان "مسابقة الكوميديا" تهدف إلى اكتشاف المواهب المتخصصة في تقديم عروض كوميدية حية أو مسجلة، وأتاحت التسجيل فيها لجميع الراغبين في المشاركة وذلك من خلال تقديم طلبات التسجيل عبر منصة إلكترونية مخصصة لهذه المسابقة.

وتستهدف المسابقة فئة الشباب والشابات الموهوبين من عمر 18 إلى 35 سنة في مجال الكوميديا والمهتمين بالفنون الكوميدية.

الشباب السعوديون يقدمون مسرحا مختلفا